

سماحة المفتي الشيخ الدكتور مالك الشعار - مفهوم مصطلح الوسطية

إن مصطلح الوسطية من الألفاظ الحادثة التي نشأت في عصرنا في حمأة الصراع المسعور الذي تشهده بلادنا اليوم فتسفك دماء بريئة، وتنتهك حرم، وتستباح بلاد. لذلك ليست عندنا مشكلة مع المصطلحات وإنما في ما تدل عليه. ولا شك أن المقصد من هذا المصطلح هو طرح التشدد الذي يظهر في عديد من المواقف سواء كانت من بعض المسلمين أو من غيرهم، وللإنصاف نقول: إن كثيراً من مواقف التشدد التي نراها من بعض المتدينين هي ردات فعل على مواقف مقابلة موعلة في التحلل والتقلت من أحكام الدين، فالأول إفراط والثاني تفريط، وكلا الأمرين مُجانب للهدى النبوي الشريف. فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه، لا إفراط ولا تفريط، على ما قاله الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى.

مفهوم اليسر والسماحة في الإسلام

وقد يندرع المفرط بيسر الشريعة وسهولتها، فنقول: نعم، الله جلّ شأنه وضع هذه الشريعة المباركة حنيفة سمحة سهلة، حفظ فيها على الخلق قلوبهم، وحببها إليهم بذلك، فلو عملوا على خلاف السماحة والسهولة لدخل عليهم في ما كلفوا به ما لا تخلص به أعمالهم، ألا ترى إلى قوله تعالى: (وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) الحجرات: ٧. فقد أخبرت الآية – كما يقول الإمام الشاطبي – أن الله حبيب إلينا الإيمان بتيسيره وتسهيله، وزينه في قلوبنا بذلك، وبالوعد الصادق بالجزاء عليه.

فالتيسير صفة عامة للشريعة الإسلامية في أحكامها الأصلية، وكذا في أحكامها الطارئة عند الأعذار، فلا توجد فيها مشقة غير معتادة، لأن «الشارع لم يقصد إلى التكليف بالشاق والإعنت فيه».

لكن ليس معنى اليسر والسماحة في الدين ترك العمل والتكاسل عن الطاعات والعبادات، كما ليس معنى التشديد فيه الأخذ بالأكمل فيها، كلا، بل المراد الالتزام بالتوسط فيها، بلا إفراط ولا تفريط.

نعم، هذا هو المنهج الوسط، وهو صراط الله المستقيم، فلا ميل إلى جانب الإفراط والتعمق والتشديد على النفس وعلى الآخرين، ولا إلى جانب التيسير الشديد والتساهل الذي يصل إلى حد التحلل والانسلاخ من الأحكام.

وكما نقل الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – عن بعض السلف: «إن دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه».

وفي هذا الصدد أيضاً كلام جميل للإمام الشاطبي حيث قال - رحمه الله تعالى - «فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلاً إلى جهة طرف من الأطراف، فذلك في مقابلة واقع، أو متوقع في طرف آخر.

فطرف التشديد -و عامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر- يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين. وطرف التخفيف - وعامة ما يكون في الترجي والترغيب والترخيص - يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد. فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رأيت التوسط لائحاً، ومسلِك الاعتدال واضحاً، وهو الأصل الذي يرجع إليه، والمعقل الذي يلجأ إليه» (أ. هـ. الموافقات).

الوسطية منهج حياة

وقديماً قالوا: إن الفضيلة وسط بين رذيلتين. وسواء اطرُد هذا القول أم لم يطرد فإن الحقيقة تضع بين الإفراط والتفريط، والناس يعانون كثيراً الغلو الشديد والإهمال البارد.

والغلو في الدين قد ينتج عن خطأ في الفكر أو عوج في الطبع، وغالباً ما يزيغ عن الحق وينتهي بالانسلاخ عن الدين الصحيح، لذلك يقول الله تعالى لنبيه: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) المائدة: ٧٧.

هناك من يبالغ في التعبد فينحرف يميناً بالابتداع والحماس الكاذب، وهناك من ينحرف يساراً بالإهمال المنتهي بالجحود والتمرد.

يقول الشيخ محمد عبدالله درّاز: «كأنه أشار باليمين إلى طرف الإفراط والتعمق في الدين، وباليسار إلى طرف التفريط والتقصير، وكلاهما منحرف عن سواء السبيل وعن الوسط الذي لا يميل إلى أحد الجانبين. ونحن لو تتبعنا أنواع البدع والضلالات الاعتقادية وفتن الشبهات، التي أشارت إليها أحاديث افتراق الأمة على بضع وستين شعبة، أما البدع والضلالات العملية وفنون الشهوات التي أشارت إليها أحاديث فتح الدنيا وبسطها لهذه الأمة وتنافسهم فيها وجعل بأسهم بينهم... إلخ، لوجدناها لا تعدو هذين الطرفين».

إن الإسلام يجعل التوسط فضيلة في شؤون الدين والدنيا جميعاً، ففي مجال التعبد يرفض الإسلام الجهد المضني ويؤثر الاعتدال المستمر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لكل شيء شرة - حماساً ونشاطاً - ولكل شرة فترة - بروداً وعجزاً - فإن صاحبها سدد وقارب فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه».

وفي شؤون الدنيا يكره الإسلام التبذير والتقتير ويحب الإنفاق المعقول، وقد وصف الله عباد الرحمن فقال: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) (الفرقان ٦٧).

والوسطية فضيلة تبرز في توجيهات الإسلام الاجتماعية والاقتصادية، ففي العلاقة بين الرجال والنساء مثلاً أبى أن تكون المرأة حبيسة البيت أو طريدته! وأن تكون نظرة الرجل إليها نظرة السجان أو الصياد!

وفي الناحية الاقتصادية أقر الإسلام حق الملكية الفردية، بيد أنه كبح جماحه بقيود الحلال والحرام، وانتقص أطرافه بحقوق الضعاف والمتعبيين. وبذلك ضمن إنتاجاً غزيراً لأن الحوافز قائمة، وحفظ الجماعة من التفكك لأن التواصي بالرحمة لم يدع ثغرة إلا سدها، ونجت الشعوب من الشيوعية الكافرة والرأسمالية الجائرة.

والمفروض أن المسلمين يتعلمون من نبيهم هذه الحقائق ويعونها ويطبقونها، فإن الله سائلهم عن الهدايات التي بلغتهم، هل انتفعوا بها ونفعوا بها الناس؟

وما من أمة إلا وهي موقوفة لتواجه هذا الحساب يوم القيامة: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) (النساء ٤١).

نعم، ومحمد صلى الله عليه وسلم شهيد على المسلمين، إنه أخذهم بتلك التعاليم الجليلة، وسيدلي بهذه الشهادة أمام الله. كما أن المسلمين سيُسألون، هل علموا كما تعلموا؟

إن الأمم كلها مكلفة أن تسمع منهم وتستفيد! وهم شهداء على الأمم لأنهم حملة الرسالة العامة ومبلغو «الوسطية» التي شرحناها آنفاً، وكما كان محمد صلى الله عليه وسلم أستاذاً لهم فهم أساتذة لسائر شعوب الأرض!

ذلك معنى قوله تعالى: ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)) (البقرة ١٤٣).

والمؤسف أن الأمة المكلفة بذلك فرطت في البلاغ والتعليم! بل فرطت في العمل والتأسي بنبيها! بل لقد أصبحت اليوم ذليلاً لأحزاب الميمنة والميسرة في الشرق والغرب ونسيت الصراط المستقيم! (من مقال للإمام محمد الغزالي رحمه الله).

